نكبة النكبات

امين الريحاني مؤلف تاريخ سورية

بحث انتقادي للاب لامنس اليسوعي

امين الريحاني! صفقوا له استحساناً ، وضفروا له اكليل الزهور اعجاباً ، ولقبوه بالاستاذ الكبير! امين الريحاني ، فيلسوف الفريكة ، تطلع الى فن التاريخ ، ومدّ يده قاطفاً منهُ وردةً يضمّها الى زهور اكليله .

لم نبخس الريحاني حقه بالثناء ، لما قرّظنا ، في الشهر السابق ، كتابه «تاريخ نجد الحديث» ؛ اما اليوم والكلام على «النكبات» فلا بد من القول فيها ، انها تلفيق بتلفيق ، لخواطر اختمرت في دماغ صاحبها ، والتاريخ براء منها . «النكبات» او خلاصة تاريخ سورية منذ العهد الاول بعد الطوفان الى عهد الجمهورية بلبنان» — هي كرّاسة لا يتجاوز عدد صفحاتها ١١٢ ، وصاحبها يفاخر بانها حوت لباب تاريخ سورية . لم نتردد في اطراء مؤلف «تاريخ نجد» اذ لكل امر أوان ، ولكل غرض تحت السماء وقت ، للولادة وقت والموت وقت ، للغرس وقت ولقلع المغروس وقت ، للقتل وقت وللمداواة وقت ، للهدم وقت وللبناء وقت ، للبكاء وقت وللضحك وقت (١)

اما اليوم فلا بد ان نُسمعه كلامنا في «النكبات» ، راقه او لم يرقه ، وللمديح وقت وللوم وقت ، وقد طاش سهم الريحاني بكتابه واخطأ المرمى فلم يحصل به على لقب المؤرخ الفيلسوف

* * *

النكبات! وحسبنا بالعنوان مخبرٌ عن المعنى

ان البشر اينما عاشوا كانوا بشراً ، وكان تاريخهم سلسلة شرور ونكبات وفظائع . تلك الآفات عبّر عنها المثل السائر عند الافرنج ، القائل : «يا سعد

(١) راجع سفر الجامعة ٣ : ١-٨

الشعوب التي لا تاريخ لها »

فلا عجب ان دوّن الريحاني في مختصر تاريخه السوري ذكرى النكبات . وهذه قد نالت بلادنا كما نالت بلاد غيرنا من الامم ذات المجد الاثيل

لكن الريحاني لم يذكر في تاريخه الا الفظائع والفواحش ، والذل ، والاعمال البربرية ، فسوّد صفحة البلاد ؛ وضرب على ماضيها بسرادق ظلام لا يخترقه شعاع نور على مدى الاجيال . نعم ليس البشر كلهم ملائكةً او ابطالًا ؛ ولكن ليسوا كلهم مسوخاً وشياطين . اما الريحاني فلم يتوسّط بين التفريط والافراط ، بل تطرّف وقسم جدود السوريين الى شطرين ، فقال في المقدمة :

« ومن هم الاجداد ، اجدادي واجدادكم ؟ القوي منهم كان ظالمًا ، والضعيف كان مستعبَدًا » . فإما اصوص لئام وإما عبيد اوغال

النكبات ! معظم فصولها هذه خلاصتها : « ان السوريين قد اظهروا منذ القدم عدم اهليتهم الاصيل الفطري لحكم ذواتهم بذواتهم من غير ما تدخل سلطة اجنبية في شؤونهم ؛ وختم فصلًا بهذه العبارة الباعثة على اليأس : « من اجنبي الى اجنبي على الدوام » وغيره من الفصول بهذه الآية ، وهي صفعة لطم بها وجه سوريّة ، ولا لطم الابن العقوق خدّ امه « انت سورية بلادي وانتم ايها الطغاة العتاة اجدادي » (ص : ٩٤) وفصّل اخبار العرب الوحشية وشنّعها وقال في دُولهم (ص : ٥٥) :

« دول الكلاب كلها !

فمنذ سنة ٢٥٤ الى سنة ٤٦٣هـ. (٨٦٧-١٠٦٧ م .) كان الحكم في هذه البلاد السورية حكم « أبخناها لكم » ولا فرق اذا كانت الدولة طولونية او اخشيدية او حمدانية او كلبية . فيا لتعس الناس الذين عاشوا في ذلك الزمان المظلم ، وكل حاكم فيه يباري زميله ، او يباهي خصمه ، بالمظالم والمذابح ، وبالنهب والسلب ، والسبي والتدمير

– ابخناها لكم ثلاثة ايام !

« السبي ما نكحوا ، والقتل ما ولدوا ، والنهب ما جمعوا ، والنار ما زرعوا »

يا للهول ويا للويل ، رحم الله من عاشوا في زمن الاباحات ، ولا رحم الله ارباحا وجنودهم . أبشرٌ خلقوا على صورة الله ومثاله يتحوّلون في ساعة واحدة الى وحوش ضارية ؟

وهل يستحقّ اولئك الجبابرة خمسين صفحة في التاريخ ؟ انهم لا يستحقون والله اكثر من سطر ، فيه كل امرهم . فقد تحاربوا ، وتكالبوا ، وذبحوا ، ونهبوا ، وفسقوا ، ودمّروا .

وبكلمة اخرى: قد استباحوا كل حلال من عرض ودم ومال »

وختم المؤلف فصله مردداً كلماته آية اليأس ، وقال: «وهم ايضاً اجدادي» على من الضحكة ايها الاستاذ ؟ اتبغي ان تدفع السوريين الى الانتحار فيرموا بانفسهم في البحار ؟

اما نظرية الريحاني في سلالة بني امية فهي نظرية اهل الشيعة ، قال: « ان حرية الكلام تقيدت على ايامهم ولو كان في عهد عبد الملك صحافة لما تمتعت يوماً واحداً بالحرية التي هي كنزها وكنز الحقيقة الاكبر» (ص : ٤٢) يا لسعدك يا عهد الامويين ! لولا شعراءك الذين استباحوا بهجائهم ما لم يستبحه الصحافيون في ايامنا

« النكبات » ! هي خلاصة تاريخية ، او بالحري هي ملفة خرق واطمار نشر الريحاني طواياها ففاحت منها رائحة النتانة والجراثم . انما فيها ديباجة واحدة لا غير وهي باسم فخر الدين « علم الوطنية الحقة ومشعلها الاوحد في تاريخنا » (ص: ٩٠) ما اضنّك على وطنك بالمجد ايها الاستاذ !

اما نكبة النكبات في عين الريحاني فهو الاستقلال الاداري الذي تمتع به لبنان منذ العام ١٨٦٠ (ص: ١٠٢) وان لفي عبارته الناطقاً لا تأتي الا على فم من جحد في شبابه وكهولته ما عبده في صباه ، لان الريحاني ماروني المولد ، ولا يزال ذكر المارونية يدهمه ويغشى على بصره فينظر الريحاني ويحكم من خلال ذلك الذكر القتال ، فيسمي الابيض في عينه سواداً . من هم في نظره اعداء البلاد الالداء ؟ .

— الموارنة . ومن حالف الاجانب ووالاهم ؟ الموارنة .

«وقد نصر الموارنة الافرنج كما نصروا الرومان على العرب من قبل ، وكما نصروا الفرنسيس من بعد (ص: ٦٠) — والاسماعيليون او الملويون هم اخوان الموارنة في حب الاجانب وفي البلاء (ص: ١٦٠)

وختم المؤلف الفصل الحادي عشر من كتابه (ص: ٦٥) بهذا السؤال:
«لبنان بلدي . راح الصليبي ، وبقيت انت . فهلا تكلمت ! ؟ »

وانى في الفصل الثالث عشر على ذكر تيمورلنك ، وحريق دمشق ونهبها سنة ١٤٠٠ فقال (ص: ٧٣)

«وبعد خمسة وخمساً وعشرين سنة من هذا الحريق يجيئك، يا دمشق، من الغرب قوم مشدقون، فيدبون في دياباتهم هادئين، ويطيرون في طياراتهم مدمّرين، ويحرقون قصورك، ويطاردون بابائك المجاهدين في الساحة التي شهدت مئات من الكوارث والنكبات»

وما على القارئ الا ان يحسب الحساب، ويعرف من هم انداد تيمورلنك وأضراب التتر. أوَ ليست فرنسة «امنا الحنون» كما يدعوها الوارنة «هي التي تسمر لنا الطليبات — بالمذابح!» (ص: ١٠٣) وتستخدمنا لاغراضها كما كانت تستخدمنا الدولة العثمانية» (ص: ١١٠) لله درك يا ريحاني ما اطيب عواطفك نحو الدولة المنتدبة!

* * *

لا يألو الريحاني جهداً في الاشادة بذكر الوهابيين وحميتهم الدينية (راجع تاريخ نجد) لكن صدره موغر حقداً على معتقدات مواطنيه، فالايمان والخرافات عنده سيان.

على ان مجد سورية الفذ هو انها مهد التوحيد. اما الريحاني فقد انكر على سورية مجدها السامي ونسب اليه كوارثها وبلاياها. ولما لاح له شبح الانبياء والرسل، حاملي لواء المدنية بين البشر، غطى وجهه بكفيه وضرب عنهم صفحاً «لانهم بلبلوا نصف العالم» (ص: ٤). اما الديانة التي استثارت كمين بغضائه فهي الديانة المسيحية التي بشر بها «بولس الطرسي، احد تلاميذ يسوع الناصري» [كذا] (ص: ٢٩) — ذلك ما انتهى اليه الريحاني في ميدان الفلسفة

اما السياسة فقد سبر غورها وحكم فيه لعهد الخلفاء الراشدين بالجمال والكمال. وددنا من ثم مواطنيه ليقتدوا في «ذلك الينبوع الانساني الذي تتفجر بمكة، ينبوع العدل والاخاء والمساواة» (ص: ٧١) ويا ليته قرأ سيرة عمر بن عبد العزيز بطبعتها النفيسة التي نشرها احمد عُبَيد، لوجد فيها (ص: ١١١، ١٣٢) كيف كان ابو بكر يعامل العرب اذا ما خطر على بالهم ان يرتأوا رأياً غير رأيه في مبادي العدل والمساواة «فانتزع [ابو بكر الصديق] السيوف من اغمادها، واوقد النيران في شعلها، وركب بحق الله في اكتاف اهل الباطل، فما برح يخرق اعراضهم، ويسقي الارض من دمائهم حتى ادخلهم في الباب

الذي خرجوا منه »

واذا اضاف الريحاني الى هذه الاخبار ما جاء مثلها في كتاب الاغاني (٦٨,٦٧,١٤) لتعلم كيف كان خالد بن الوليد يفهم الاخاء ، وكيف كان ابو بكر يشمله بجاه وسلطانه . عصر الخلفاء الراشدين ! ويا له من عصر ذهبي ! والخلفاء الراشدون اربعة ثلاثة منهم هلكوا اغتيالاً ؛ فتبًّا لها من مساواة بالموت الاحمر . وقد عدّوا بين الخلفاء الراشدين خامسهم عمر بن عبد العزيز وهو الذي امر بألّا يوقر الجمل باكثر من ثقل ٦٠٠ رطل وخبذا الرفق رفقه بالبهائم؛ اما حنانه على مواطنيه فاليك عنوانه :

« كتب عمر بن عبد العزيز الى عماله (راجع سيرة عمر بن عبد العزيز ص: ١٦٥-١٦٦) : وانظر فلا يركبنّ نصرانيٌّ على سرج ويركبوا بالاكف ، ولا تركبنّ امرأة من نسائهم راحلة ولكن مركبها على إكاف ، ولا يحجبوا على الدواب ، وليدخلوا ارجلهم من جانب واحد ، وتقدم في ذلك الى عمالك حيث كانوا ، واكتب اليهم كتاباً في ذلك بالتشديد واكفنيه ، ولا قوة الا بالله »

وكتب عمر بن عبد العزيز الى الآفاق :

« ان لا يشبّنّ نصراني الا مفروق الناصية ، ولا يلبس قباء ، ولا يمشِ إلّا بتركتار من جلود ، ولا يلبس طيلساناً ولا سراويل ذات خَدَمة ، ولا نعلًا لها عذبة ، ولا يوجدنّ في بيته سلاح »

* * *

قال الشاعر النجاشي : (١

« وما فيّ من خير وشرّ ، فانما سجية آبائي ، وفعل جدودي
هم الفرع ، فرعي منهم متفرّع وعودهم ، عند الحوادث ، عودي »

من اي فرع تفرّع الريحاني ؟ انه لأدرى بالامر منا . على انه وضع لكتابه نتيجة وعبرة وهذه هي : يجب ذلك الاجداد ونبذ القديم والاعراض عن عصور الجهل والنبارة التي سبقت النكبات . وخلع نير « المعتمين والمقلدين » فلا ننقاد لرجال الانتداب « ولا نرضى بخيال الجمهورية » (١١٠—١١١)

تلك هي نتيجة حملة الريحاني وجهاده وبئس النتيجة ، بعد المقدمات . الم يعلن على رؤوس الملا ان السوريين خلقوا للعبودية الدائمة وهم عاجزون على حكم انفسهم بانفسهم

(١) راجع حماسة البحتري طبعة شيخو ، عدد: ١١٧٧

« وهم متحدّرون من اولئك الذين كانوا في الماضي يدفعون الخراج ، ويأكلون الكرباج » (ص: ١١٢) فلماذا يدعونا الى الحكم الذاتي ؟ لماذا ؟ لانه تقدم الينا وبيده الدواء الشافي ، ولسان حاله يقول : اقرأوا الريحانيات ، وتصفّحوا النكبات ، فتجدوا السبيل الى النجاة . وان لم تجدوا الضالة المنشودة فحدثوا انفسكم بالمعجزات تروها ، والخوارق تبصروها ، اذا حلّ الوهابيون البلاد ، وفي طليعتهم ابن سعود ، عمر الثاني ، سلطان البلاد ، ومن عن يمينه وزيره الاوحد ، الاستاذ الكبير ؟

لقد زلزلت الارض زلزالها ، وزحف جيش الجراد على ربوعنا بعدده وعديده ، واكلت الارياف ، وقلت محاصيلها . تلك كانت نكبات هذا العام ، ولم يخطر قط في بالنا ان الريحاني يزيدنا نكبة على النكبات

اميّة بن ابي الصَلْت

بقلم الاديب ميشيل سليم كيد

ذهب قوم يعرفون شعر امية ،
وكذلك اندراس الكلام .
(العجاج)

٢

ينظر امية الى الله كمكافئ فقط ، فلا يذكر في شعره سوى عفوه ورحمته واما عدله تعالى فلا يذكره ، قال ، وهو يجود بنفسه :

إن تغفرِ اللهمَّ تغفرْ جمًّا ؛ وايُّ عبدٍ لك لا ألمّا !

فهو يتوسل اليه تعالى ان يغفر له ذنوبه ، وها هو هنا يظهر لنا « ليس نبيًّا كمحمد بل كملّم ديني ، يؤمل مكافأة ربه فقط ، الذي لا يخدم هو سواه بقية ايامه ، قال :

ولسوف ينسى ما اقول معاشرٌ ولسوف يذكره الذي لا يزهدُ